نشوء الديموقراطية
وتطورها
— ٢ —

لناشد سيفين

طمّ سيل قياصرة الرومان وفاض حتى اكتسح العالم كله . واستفاضت شهرة لكتائب روما انها لا تقهر . حتى اذا حسب القوم انهم قد حطموا كل مقاومة وأصبحوا سادة العالم بلا منازع . ارتفع صوت في فلسطين باسم الحرية . وشقّ شعب اليهود عصا الطاعة لروما العظيمة . ورفعوا راية العصيان في وجه قيصر . فجنّ جنونه ورماهم بابنه تيطس على رأس جيش كبير فحاصر اورشليم مدينتهم المقدسة وما زال بدك أسوارها ويضيق عليها الخناق حتى دخلها عنوة فقتك بحاميتها ودمر المدينة والهيكل تدميراً تامّاً لم يبق فيهما ولم يذر حجراً على حجر

ذهبت ريح اليهود بعد تدمير المدينة التي كانت موطن عزّهم ومعقد آمالهم فتبدّدوا في فجاج الارض وتشتتوا في بلدانها . وتوراتهم معهم تحمل في طياتها مشعل المساواة . وهكذا حلّوا بين الأمم ليكملوا الجهاد الذي بدأوه في فلسطين في سبيل الحرية . ويحملوا النصيب الذي قدّر لهم أن يحملوه من النضال ضد الطغيان . لاحياء الديموقراطية وبعثها على أسس من الحرية والاخاء والمساواة . ليكون لهم في أرض الله ما لغيرهم من الحقوق

وعاشوا في بلاد الغربة كما كان أسلافهم في التيه لا يفتأون يذكرون انهم كانوا عبيداً للمصريين وبنّائين مسخّرين حتى تولّى الله أمرهم واتخذهم شعباً لهُ وحرّرهم . وآلوا على أنفسهم أن يظلوا الى الأبد لالههم شعباً . فاستمسكوا بعروة دينهم لتدوم لهم صبغتهم . وحرصوا ألاّ يختلطوا مع الأجناس الأخرى بالمصاهرة لتبقى لهم مميزات جنسهم . وفاق بعضهم في ذلك فأطلقوا على أنفسهم اسم البنائين الاحرار . وتقلدوا شعار آبائهم الأولين ، واصطبغوا بصبغتهم ، وكان من جرّاء ذلك ، انه صار لليهود في كل بلد كيان مستقل ، وشخصية متميزة ، فساءت فيهم الظنون ، وسدّت في وجوههم أبواب الوظائف في كثير من الدول ، ولم يسمح لهم بالاختلاط في سلك الجندية ، فلم يبق لهم من

ميادين لاستغلال مواهبهم ونشاطهم غير المهن الحرة والتجارة وأعمال الصيرفة ، فبرزوا فيها كلها ، وقبضوا على أزمتها ، وأثبتوا انهم أبناء بجدتها . وأنشأوا امال دولة وكانوا هم سادتها

أثار نجاح اليهود في مهاجرهم حسد أصحاب البلاد وحقدهم فنسجوا حولهم كثيراً من القصص وأذاعوا عنهم اشاعات للخيال فيها نصيب كبير . يدور معظمها حول اربا وقسوتهم فيه على المدينين . ومن قبيل ذلك قصة تاجر البندقية لشكسبير . ثم أذاقوهم العذاب بما افتروا عليهم . واضطهدوهم وأسرفوا في ذلك كثيراً

أدرك زعماء اليهود ان العلة فيما يكابدون من ألوان العسف هي العداء لدينهم وجنسهم من التعصب ، فازدادوا تماسكاً فيما بينهم وارتباطاً ، وحرصاً على الحرية التي وهبت لهم ، وتشبثاً بعقائدهم . وأيقنوا انهم لن يطيب لهم المقام بين الأمم إلا أن تباح الحرية الدينية ويقضى على الفوارق الجنسية

ومن هنا يبتدىء نضال البنائين الاحرار لبناء المجتمع على أساس الحرية والاخاء والمساواة . ويبتدىء من ثم تاريخ البناية الحرة وهي المشهورة باسم الماسونية كقوة من قوى الديموقراطية وكعامل له خطره في التطورات السياسية

كان الأمر فيما يتعلق بالماسونية ومبادئها وأغراضها سراً بين طائفة من اليهود في أول عهدها . وكانت اجتماعاتها قاصرة عليهم . لكن لم يمض غير قليل حتى كان البناءون الأحرار قد اتصلوا بكثيرين من الناقمين على نظام الطبقات الذي كان سائداً في أوربا في ذلك الحين . لكن لم يقبلوا منهم في محافلهم إلا من وثقوا به واطمأنوا الى اخلاصه خشية أن يندس بينهم من يكون عيناً للحكومة فيفسد عليهم أمرهم . وكان تدقيق الماسونية في اختيار اعضائها واشتدادها في ذلك الى حد بعيد هو السبب في كل ما يذاع عن اسرارها الخفية ، وما ينسج حول ذلك من أقاصيص

وما وافى القرن الثامن عشر حتى كانت العلوم قد نهضت نهضتها الكبرى والصناعة الآلية قد تقدمت تقدماً كبيراً . وأقبلت الطبقة الدنيا على العلوم يغترفون من مناهلها . وعلى الصناعة يشتغلون مواهبهم ونشاطهم في ميادينها . ومن هؤلاء نشأت طبقة وسطى تسامت بأبصارها الى الأشراف فأنكرت عليهم ما يتمتعون به من امتيازات لا مبرر لبقائها لهم فسل اختصوا به او مزية لم تكن لغيرهم ، سوى ما أورثهم الحكم المطلق من ضياع وألقاب

وكان نشاط هذه الطبقة الناشئة المثقفة على أشده في فرنسا بفضل مؤلفات فولتير عن الحرية الدينية . وكتابات روسو عن أسباب عدم المساواة . ونظريته عن العقد الاجتماعي .

والانسكلوبيديا التي جعلت سائر العلوم من طبيعية واجتماعية وسياسية في متناول الشعب. وكان من شأن كل هذا أن يوسع آفاق التفكير في فرنسا ويفتح عيون شعبها لنقد حكومتها

ولما ارتبكت مالية البلاد في عهد لويس السادس عشر وماري انطوانيت لم يفت الشعب ان يروا في ذلك آية على فساد النظام القائم. وابتدأت الدعوة من ثم لاصلاحه وتتابعت هجمات الاحرار على الحكم المطلق لابداله. وكان اول سهم سددوه الى هذا الحكم وأصاب مقتله هو طلبهم من الملك اجراء الانتخابات العامة للجمعية العمومية. وهذه هيئة استشارية كانت تمثل طبقات الامة الثلاث: الاشراف ورجال الدين والشعب. وقد دعيت في سنة ١٦١٤ م لاقرار تولية لويس الثالث عشر الملك وكان قاصراً. ثم لم تدع منذ ذلك الحين للانعقاد

وما زال الاحرار يلحون في طلبهم من الملك اجراء الانتخابات لهذه الجمعية ويشددون عليه النكير حتى وافق على طلبهم وتحدد لانعقاد الجمعية يوم ٥ مايو سنة ١٧٨٩

* * *

كان لنواب كل طائفة قاعة خاصة يجتمعون فيها للمداولة. وكان لكل مجلس صوت في المسائل التي تعرض. فاذا اتفق مجلسان على رأي فهو الراجح. ولما كانت مصالح الاشراف ورجال الدين واحدة فقد كان يحدث دائماً أن تتفق آراء مجلسيهما فتكون الاغلبية في جانبهم. غير أن الشعب في هذه المرة قد صمم على ان يكون اجتماع الطبقات الثلاث في قاعة واحدة ثم تجري المناقشة في المسائل المطروحة وتصدر القرارات بأغلبية الاصوات. فلما انعقدت الجمعية في الموعد المقرر طرح هذا الرأي للمناقشة فرفض الاشراف ورجال الدين الموافقة عليه وأصروا على بقاء التقليد القديم. ولزم نواب الشعب موقفهم وعولوا على الاجتماع بمفردهم اذا رفض الاشراف ورجال الدين النزول على رأيهم

وبناء على هذا أرسل نواب الشعب في شهر يونيو دعوة الى نواب هاتين الطبقتين للحضور الى قاعة الشعب للقيام بالواجبات التي دعيت الجمعية العمومية من أجلها. وأضافوا الى ذلك قولهم انهم يمثلون ٩٦ ٪ من مجموع الامة. وهم يعدون انفسهم لذلك أصحاب السلطة الفعلية في البلاد

وفي الموعد المحدد اجتمع نواب الشعب. ولم يحضر النواب الآخرون. فأطلقوا على أنفسهم اسم الجمعية الوطنية. وكان معنى هذا انكار وجود طوائف أخرى غيرهم وحصر السلطة في أيديهم. وبانكار امتيازات الاشراف والغاء مجالسهم قضى على نظام الطبقات وبانكار

امتيازات رجال الدين والغاء مجلسهم فصلت الكنيسة عن الدولة . وحصر السلطة في أيدي الشعب قضى على الحكم المطلق

***

أخذت الحوادث تتطور بعد ذلك بسرعة وفي يوم ٥ اغسطس أصدرت الجمعية الوطنية وثيقة حقوق الانسان التي أصبحت نبراساً تهتدي به الشعوب وعلى مبادئها ترتكز دساتير الأمم الحرة في العالم كله . واليكم مقتطفات منها :

يولد الناس ويعيشون أحراراً متساوين في الحقوق . لا تمييز ولا تفاضل بينهم الا فيما تقتضيه المصلحة العامة

الغاية من كل مجتمع انساني صيانة الحقوق الطبيعية للانسان وهي الحرية والملكية وطمأنينة الشعب ومقاومة الاضطهاد

الشعب هو مصدر السلطات جميعها وليس يحق لأي فرد أو أية جماعة ان يأمروا أو ينهوا الا اذا استمدوا السلطة بذلك من الشعب

ان القانون هو مظهر الارادة العامة ولاهل البلاد جميعاً الحق في ان يشتركوا في وضعه بأنفسهم أو بوساطة نوابهم . والقانون واحد بالنسبة للجميع . والناس سواء امام المراتب والوظائف العامة . لا تفاضل بينهم الا في اختلاف كفايتهم ولا تمييز الا في ما تقتضيه فضائلهم ومواهبهم

واذا دققنا النظر في هذه الوثيقة وتحرينا عن المصادر التي استلهمت منها المبادىء التي تنطوي عليها فاننا نجد ان واضعيها أخذوا عن اليونان المبدأ القائل ان الامة هي مصدر السلطات والمبدأ الآخر الذي يقول ان لاهل البلاد جميعاً الحق في ان يشتركوا في وضع الشرائع بأنفسهم أو بوساطة نوابهم. اما ما جاء فيها عن المساواة في الحقوق والمساواة امام المراتب والوظائف فهو مستلهم من مبادىء البنائين الاحرار . واننا لنلمح في عبارتها بريق الحرية والاخاء والمساواة

وقد قامت الجمهورية في فرنسا على اساس المبادىء التي تتضمنها هذه الوثيقة ورفرف فوق بنائها الشامخ علم مثلث الالوان يرمز كل لون منها وهي الابيض والازرق والاحمر الى مبدأ من المبادىء الثلاثة : الحرية والاخاء والمساواة . وانتشرت هذه المبادىء في العالم كله وأصبح الدستور والحكومة الديموقراطية حلم كل شعب مهيض الجناح وانغمست الماسونية الفرنسية في السياسة بعد هذا الفوز . وسارت على منهاجها محافل كثيرة في البلاد الاخرى . فلم تتوان عن تغذية روح الثورة على الحكومات الاستبدادية

وهذا هو السبب في أن كثيراً من الحكومات تنظر الى الاشتراكية بعين الريبة وتحاربها باعتبارها خطراً على الدولة. غير ان قوى الاستبداد لم تستطع أن تصد تيار المساواة الجارف عن سبيله

فما وافى القرن التاسع عشر حتى كانت الثورة الصناعية التي نشأت عن تقدم العلم وتطبيقه وأدت الى الثورة السياسية وفوز الديموقراطية في القرن السابق قد قاربت أوجها. لكنها لم تبلغ الذروة إلا في منتصفه حين استنبط بسمر Bessemer طريقته في صنع الفولاذ. فكانت مفتتح عصر الفولاذ الحديث. وهو يتميز بما استحدث فيه من آلات صانعة بلغت الغاية في ابداعها وسرعة انتاجها. كالمنول المدار بقوة بخارية. وآلة الخياطة. والمحراث التجاري والحاصدة التي تربط الحزم من تلقاء نفسها. والمطحن البخاري. وغير ذلك من الآلات التي حلت محل أيدي مهرة الصناع وحذاقهم. وقطعت على ملايين منهم سبل الرزق وقضت عليهم بالتعطل. وكانت عاقبة هذا ظهور الاشتراكية التي أدت الى ثورة العمال في سبيل المساواة

وأول من قال بالاشتراكية كارل ماركس وهو من علماء الاقتصاد في المانيا ومن يهودها المتنصرين. رأى ما حل بالعمال وهالته كثرة المتعطلين منهم. وأدرك بثاقب بصره ان مشكلتهم ان لم تحل على منهاج واضح وأسس اقتصادية قويمة فسينكب العالم منها بنكبة لم يشهد قط مثلها. وعكف من ثم على دراسة شؤون العمال مذ كانت في العالم صناعة. وخرج من ذلك بالاشتراكية وجاهر بها. وهي نظرية اقتصادية تخالف في مبادئها وفي نظرتها الى العامل وعلاقته بصاحب العمل ما جرى عليه الناس وصقلهُ العرف من قديم

***

وجد العمال في الاشتراكية خيراً لهم فتحمسوا لها. وكان أشدهم حماسة عمال المانيا. وهذا طبيعي لأنها موطنها ومبعث رسالتها. وكان على رأس حكومة المانيا في ذلك الحين سياسيها العظيم بسمارك. فتظاهر في أول الامر بالميل اليها وتأييدها لغرض في نفسه، إذ كان يسعى الى التخلص من سلطة النمسا فكان مضطرًّا أن يتزلف الى العمال ليشدوا أزره اذا ما تحرَّجت الامور واشتبك في حرب معها. فما هو إلا أن وصل الى بغيته بعد حرب سنة ١٨٦٦ حتى تنكر للاشتراكية وقاومها بعنف لانها نضر بكيان الدولة القومي والاجتماعي

لم يقف في عضد الاشتراكية ما لقيته في المانيا من المقاومة. فما أزفت الساعة المواتية في مستهل القرن العشرين بهزيمة الروسيا وألمانيا في الحرب العظمى حتى اندلعت في كليهما نار

الثورة اذ قامت في ألمانيا حكومة اشتراكية لكنها لم تعمر طويلاً كما تعلمون. وقامت الشيوعية في الروسيا ولا تزال باقية باسم الجمهورية السوفيتية

هذا ما اصاب تاريخ الاشتراكية. اما الديموقراطيات فكانت اكثر استعداداً للأخذ من نظرياتها. فسمحت لها صدرها حتى صار للعمال في تلك البلاد احزاب تنظمهم ونواب ينطقون بلسانهم ويذودون عن مصالحهم. ويحسبي ان أشير الى مشروع بيفردج الذي وضع كثيراً من المبادىء الاشتراكية وتقدم به صاحبه اخيراً الى الحكومة البريطانية ليظهر الدليل على ما اتصفت به الديموقراطية من التسامح حيال المذاهب الحرة والقابلية للتدرج في سبيل المساواة. وهناك الملكية المقيدة. وهي شكل آخر من اشكال الديموقراطية نشأ في الجزيرة البريطانية وانتقل منها الى بلاد اخرى

فقد استطاع الشعب البريطاني في عزلته عن القارة ان يتدرج بالحكم من الاستبداد الى الديموقراطية مع بقاء الملك على رأس الدولة. ويرجع تاريخ الديموقراطية في تلك البلاد الى سنة ١٢١٥ حينما استطاع النبلاء ان يحملوا الملك جون على اعلان الوثيقة الكبرى وهي في جوهرها بيان بحقوق الانسان على شاكلة الوثيقة الفرنسية. ولهذه الديموقراطية شعار آخر غير شعار الثورة الفرنسية يتفق مع الملكية هو: الله والملك والشريعة. والانكليز مع ذلك اكثر الامم استمساكاً بمبادىء الحرية والاخاء والمساواة. وبلادهم هي الملجأ الامين للهاربين من وجه المستبدين. وقد امتزجت المبادىء الديموقراطية بدماء الانكليز وأشربوا في قلوبهم حبها وسمت بأخلاقهم الى مستوى لم تبلغه في غير بلادهم. ألم تروا كيف ضاقت مسافة البعد بين طبقتي الاشراف والعامة عندهم حتى ان الملك يرفع ابناء الشعب الى مرتبة الأشراف بينما ينزل أبناء الاشراف غير الوارثين الى مرتبة الشعب. والعادة عندهم ان يرث الابن الأكبر اللقب والثروة وحده. فلا يرى الاشراف في هذا ما يضير حتى كأنه لا فرق في تقديرهم بين الطبقتين.

وقد كان لهذه الروح الديموقراطية العالية أثرها في توكيد الأواصر بين طبقات الشعب الانكليزي. فلما ثارت ثائرة الحرب وأطبقت ويلاتها على العالم. أظهر الانكليز من الاتحاد والتماسك وقوة الاحتمال ما جعلهم جديرين أن يلقبوا بحماة الديموقراطية وحصنها الحصين

***

هذه هي الديموقراطية وهذه مبادئها. فاذا رأيتم انها فشلت في بلد من البلاد وتصدع صرحها وانهار او كاد فانظروا ماذا هناك في ذلك البلد مما ينافي مبادىء الحرية والاخاء والمساواة.